{مخموم القلب!!!}

إعداد

د. ناجي بن محمد بن وقدان

المدينة النبوية

١٤٤١/٥/١٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أما بعد:

إن الحديث عن مخموم القلب ،حديث شيق تتوق له القلوب المؤمنة، والنفوس المستنيرة بنور الله تعالى،ومخموم القلب صفة عظيمة جمعت من البر جوانبه، ومن الخير أعاليه وأطايبه،ويكفيها شرفا ورفعة، أن قلوب المؤمنين وصدورهم تزيد بها اطمئنانا وانشراحا،وهي غاية مايبتغيه السالكون الصادقون، من حققها الله له فقد جُمِع له الخير كله، وعم بنفعه من حوله.

وهذه الصفة لجميلة جاءت في حديث النبي صلى الله عليه وسلم الصحيح، فعن عبد الله بن عمرو قال: قيل لرسول الله –صلى الله عليه وسلم–: أي الناس أفضل؟ قال: كل مخموم القلب، صدوق اللسان قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي، ولا غل، ولاا حسد [رواه ابن ماجه، وصححه الألباني] وفي أثر آخر سُئِل: أي الناس أفضل؟ فقال عليه الصلاة والسلام: (الصادق اللسان، المخموم القلب)، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: (هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا غل، ولا بغي ولا حسد)، قال بعض العلماء" وهذا الحديث العظيم من أعلام نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، فإن مثل هذا الكلام لا يتأتى إلا لِمُلْهَمٍ حكيمٍ موحى إليه، والنور يتلألأ من هذا الكلام، كما يتلألأ الجوهر النقي الأصيل، وإن الصالحين لَيَسْتَمِدُّونَ منه من الأنوار ما يُثَبِّتُ يقينَهم، ويُزَكِّي نفوسهم، ويُطرب أرواحهم حتى تنشرح بقَبول الحكمة بقلوبٍ منفتحة على الخير، باعثة على البذل والفعل".

"ولمخموم القلب" دلالة لغوية وبلاغية ودلالة موضوعية، فأما الدلالة اللغوية فإن:

"خم" بمعنى كنس ونقى، وخم البيت أي كنسه ونقاه ونظفه، وخم قلبه أي نقاه من الغل والحقد والحسد.

قال ابن الأثير "وهو مِن: خَمَمْتُ البيت؛ إذا كنستَه، ومنه قول مالك: على المِساقي خَمُّ العين؛ أي: كنْسها وتنظيفها".

وقال ابن منظور"خَمَّ البيتَ والبئرَ يخمهما خمًّا واختمَّهما: كنسَهما، والاختمام مثله، والمِخَمَّةُ المِكْنَسة".

وأما الدلالة البلاغية فهي ما ورد ي الحديث من تشبيه بليغ ،إذ شبه أفضل الناس وخيرهم وأكملهم خلقا من خلا قلبه من مساوئ الأخلاق، ومبطلات الأعمال وهي الآثام والغل والحسد والبغي، وبهذا التشبيه جعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم الذي يجتهد في تطهير قلبِه كالذي يسعى في تنظيف مكان إقامته وسكنه ،والتشبيه في الحديث جاء تشبيهًا حِسيًّا من أبلغ أنواع التشبيه إذلا يحمل أداة تشبيه ، وجاء وجه الشَّبهِ فيه متعدِّد، فهو الطهارة والنقاء والصفاء من جهة، والتطهير والتنقية من جهة، والوجهان يدخلان في النمط الحسي.

وهذا التشبيه البليغ في الحديث الشريف فيه إشارات تربوية جميلة وهادفة،ومن ذلك أن الناس يَذُمُّون مَن يرضى الجلوس أو الإقامة بمكان تكثر فيه الأوساخ والقاذورات والنتن، فكأنه عليه الصلاة والسلام يلمح أنه إذا كان ترك مكانك متسخًا مذمومًا عند العقلاء، فكذلك يجب أن يكون الحال مع مَن ترك قلبه متسخًا بالصفات الذميمة الناقصة، ففيه حثٌّ على الاجتهاد في تطهير القلوب بتلميح رقيق عذب خفيف، دون شدة أو تعنيف، ومن ذلك أيضا أن النفس البشرية تغمرها السعادة والانشراح إذ رأت المكان النظيف الخالي من مخلفات الأوساخ، فكذلك الناس تسعد نفوسهم وتنشرح صدورهم إذا وجدوا صاحب القلب الطاهر النظيف من الآفات المذمومة، وتطمئن له وتسر بما يتكلم به من الخير وتنتفع به، وإن لازمه الصمت فصمته بصمة رحمة وطمأنينة تستأنس بها نفوسهم، ومن ذلك أيضا أن إصلاح القلب ممكنٌ، كما يمكن تطهير الأمكنة، فانتفى به الوهم الحاصل مِن كونِ تطهير القلوب جملةً غيرَ ممكن. ومن ذلك أيضا ،أن العبرة بصلاح القلوب لا بكثرة الأعمال، فإنه صلى الله عليه وسلم جعل مخمومَ القلب أفضلَ الناس، فلم يَقُلْ أفضل الناس أكثرُهم عملًا، وإنما قال: مخموم القلب،ومن ذلك أيضا إستحبابُ استعمال الغريب من الكلامأو المفردات في جواب السائل،لإثارته وإعداده

لتلقي الجواب وإثبات العلم، فلو قال عليه الصلاة والسلام (أفضل الناس التقي النقي، لا إثم فيه ولا غل، ولا بغي ولا حسد)، لم يكن وقعه كوقع (مخموم القلب)، فإنه أثار به الصحابةَ رضوان الله عليهم، وهيَّأهم لقَبول الموعظة والعلم، حتى انفتحت قلوبهم، ثم أودع فيها تلك الحكمةَ الخالدة التي حُفِظَت إلى يومنا هذا.

فهذه إشارات عملية تضمنها الحديث،ودل عليها أسلوب التشبيه،في تفسير معنى مخموم القلب.

ومخموم القلب المذكور في الحديث يتضمن صفات عدة، من كن فيه فقد حاز خيري الدنيا والآخرة، ومن تلك الصفات، التقوى في قوله(التقي)، والنقاء في قوله(النقي)، وخلوه من الإثم في قوله(لا إثم فيه ولا بغي)، والخلو من براثن الغل في قوله(ولا غل)، والخلو من البغي في قوله(ولا بغي)والخلو من الحسد في قوله(ولا حسد).

والتقوى مأمور بها في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لأنها منشأ كل خير،ومغلاق كل شر، وهي بوابة الرضى، ومفتاح الجنة،وفيها المخرج والنجاة،والسلامة والسعادة، وهي مكنون الخوف من الله ومراقبته في السر والعلن ،كما قال عز وجل(ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا) وقال عليه الصلاة والسلام(اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن) رواه الترمذي بسند حسن من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه. والأصل في التقوى أنها عطاءٌ وفضل مِن الله جل جلاله؛ لأنها لا تكون إلا باستحضارِ عظمته، ولا يحصل ذلك إلا لِمُوَفَّقٍ مِن عباد الله المخْلَصِينُ.

والنقاء النظافة، وهو ثمرة من ثمار التقوى،وكأنه عليه الصلاة والسلام جعل مخموم القلب هو التقي الذي جعلته التقوى نقي القلب، أي مخمومه)، ولذلك فُسِّر النقاء بأنه الخلوُّ من الغل والبغي والحقد والحسد.

والإثم، وهو الذَّنب، والمراد به هنا المعصية، ما لم توجب حَدًّا، ولم تبلغ حد الاستطالة على العباد، فهو دون البغي، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف ٣٣]، قال الإمام القرطبي رحمه الله في هذه الآية – نقلًا عن

الفراء"الإثم ما دون الحد والاستطالة على الناس"، ونقل ابن الجوزي عن ابن عباس والضحاك والفراء"أنه الذنب الذي لا يوجب الحد".تفسير القرطبي ١٢٨/٤ .

والغل، وهو الضِّغْنُ والحِقْدُ والغِشُّ الكامن في الصدر إلى حدٍّ يوجب حرارة الصدر وضيقه، وذلك منافٍ لطهارة القلب، فلزم أن يكون مخموم القلب خاليًا من هذه الصفات، لا يَعْلَقُه منها شيء، ومن صفة الغل الخفاءُ، فلا يظهر بفعلٍ وأذى، بخلاف الحسد.

والبغي، وهو التعدِّي والظلم والفساد، والمراد به في الحديث عموم الاستطالة على العباد، قال القرطبي نقلًا عن ثعلب"البغي أن يقع الرجل في الرجل فيتكلم فيه، ويبغي عليه بغير حق، إلا أن ينتصر منه بحق". الجامع لأحكام القرآن، الجزء السابع، ص: ٢٠١ .

والحسد، وهو أن يرى الرجلُ لأخيه نعمةً فيتمنى زوالَها عنه، فهو غلٌّ كامن في الصدر، إلا أنه تجاوز إلى الفعل والأذى، وكلما اشتد حسد الحاسد، زاد سَعْيُه في إزالة نِعَمِ المحسود؛ بالعَينِ، أو بالسِّحر، أو غير ذلك من المكايد الشيطانية.

فالإثم والغل مستورتان في قلب صاحبهما، بينما الحسد والبغي متعديتان للإضرار بالناس. والسعيد من أنار الله قلبه بتقواه، وأذهب عن قلبه وصدره ونفسه أدران الحسد والغل والأحقاد والإحن، وأركن في قلبه يقين القضاء والرضا، وأن كل لايتعدى ما كتب الله له في الدنيا،مما يعينه ويُقَوّته لحين الرحيل ومفارقة الدنيا، إلى دار قد استبانت له فيها طريقه، وبانت له صحيفته،وقام على معاينة ما كان في الدنيا يوعد.نسأل الله تعالى أن يرزقنا قلوبا خالية من شوائب الغل والحسد والبغضاء والإحن،وأن يجعل محبته ورضاه مبتغانا وبلاغنا إلى حين.